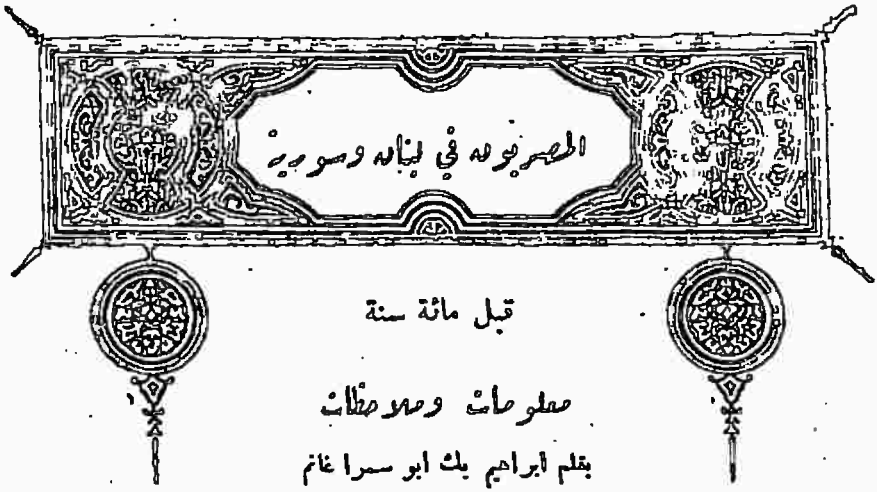

قبل مائة سنة

مطولات وملوظات

بقلم ابراهيم بك ابو سمرا غانم

٢

توابع الثورات على الحكومة المصرية

بعد ان عاد ابراهيم باشا من انتصاراته على الجيوش العثمانية ، فكر في تجنيد المسلمين جبرًا . فشق عليهم ذلك ، ولم يطيقوا صبرًا على احتمال هذه الحالة الشاذة ، فثار ثائرهم . وكان اول من نادى بالعصيان اهالي نابلس ومن جاورهم من الانحاء الفلسطينية . وكان قائد الثورة وبطلها الشيخ قاسم احمد النابلسي ، فمشى الثائرون مهاجمين القدس ، واكرهوا حاميتها الى الالتجاء الى القلعة والى برج داود . فلما علم ابراهيم باشا بالامر اسرع بثلاث فرق الى نجدة المدينة ، فدخلها وتحصن فيها . فاتته نجدة من دمشق بقيادة الامير آلاي مصطفى بك ، فكمن لها النابلسيون في مضايق عجلون وبددوها . ولما بلغت هذه الاخبار محمد علي أسرع الى نصرة ولده واسعافه بالمدد ، فجاء من الاسكندرية ومعه خمسة عشر الف جندي . ونزل في يافا وراسل الشيخ قاسم احمد ، زعيم الثائرين ، ليرفع الحصار عن القدس مع الوعد له بالتسليم بجميع مطالبه . فحضر الشيخ الى يافا بعد ان امر مواطنيه بايقاف الحصار . ولما قابل محمد علي اشترط عليه اول كل شيء اعفاء الاهالي من الخدمة العسكرية ، واعلان العفو العام ، والامتناع عن احتكار الحبوب ، والغاء الفردة ، واعادة الضرائب الى ما كانت عليه في زمن عبدالله باشا . فقبل محمد علي بهذه الشروط . وعاد الشيخ قاسم الى القدس ورفع الحصار عن المصريين .

ثم سادت السكينة في البلاد الفلسطينية برهةً . وبينما كان الناس يأملون التمتع بالراحة والسلام وقتاً طويلاً ، اذا بابراهيم باشا يُعيد الكرة على البلاد النابلسية على رأس ستة عشر الف جندي . فسالت الدماء انهاراً ، وانتشر الدمار في كل ناحية ، فهُدمت نابلس وحبرون ، وأُعمل السيف في رقاب سكانها ، والقي القبض على الشيخ قاسم احمد وسيق الى دمشق حيث قُطع رأسه مع رؤوس اربعة من ابنائه وكثيرين من مشايخ تلك البلاد .

وفي تشرين الاول من السنة ١٨٣٤ ، نشبت نيران الثورة في ولاية حلب ، وفي بلاد بعلبك ، وجبل الشيخ . واخذ الثوار يقطعون طرق المواصلات على المصريين ، فلجأ ابراهيم باشا الى الامير بشير ليُنصره على المتاولة ، فلبّى الطلب مسرعاً وسيَّر ابناءه الى جهات بعلبك فاخمدوا في الحال ثورتها .

وفي اوائل السنة ١٨٣٥ ، امتدَّ لهيب النار الى فلسطين ، وكليس ، وشمالي حلب ، وادنه . ولكن المصريين اطفأوها بعد ان سفكت دماء غزيرة .

وفي تلك السنة ايضاً امتنع الجوارنة عن دفع الضرائب . فأُرسلت فرقة مصرية لارغامهم على الدفع . ففاجأتها ، وهي معسكرة في احدى السهول ، جيوش وافرة من دروز حوران والنصارى المقيمين بينهم ، ومن عرب عنزه ، وقتلت قائدها الفريق محمد باشا والامير آلاي يعقوب بك ، وشتّتت شملها . ولما بلغت هذه الاخبار المشؤومة ابراهيم باشا ، وكان حينئذٍ في انطاكية اعلم اباه بالامر وسأله ان ينجده بالرجال . فبعث اليه وزير حربيته احمد باشا مع تسعة آلاف مقاتل . ولما وصلوا الى اللجا وتوغلوا فيه اطبق عليهم الثائرون ، وقتلوا منهم ثلاثة آلاف رجل ، وغنموا مدفعين وكمية وافرة من معدّات القتال . وقد قتل في هذه المعمعة امير آلاي وعدد كبير من الضباط . وكان في مقدمة ثوار الدروز احد فرسانهم المغاوير شبلي آغا العريان ، الذي منحته الدولة العثمانية بعد حين لقب باشا وقلّدته متصرفية بغداد .

فهال ابراهيم باشا خبر اندحار عساكره وعجزها عن التغلب على الثائرين . فسيَّر الى الامير بشير الرسل يستنجده على قتال الثوار ، وبعث اليه بستة عشر الف بارودة ليوزّعها على المسيحيين مع الوعد بتخفيض الضرائب عنهم واعفائهم

الى الابد من النخرة . فسُرَّ المسيحيون من هذه الوعود الخلّابة ومشوا الى قتال الثوار في حوران ووادي التيم يقودهم امراؤهم ومشايخهم . وقد وقعت مناوشات عديدة بين الجنود المصرية واللبنانيين من جهة وبين الثوار من جهة اخرى في اماكن عديدة كصيدا ونجبا ووادي بكما وشبعا . وقد لقي حتفه في هذه المعركة الشيخ فضل الخازن ، والد الشيخ قعدان وجدّ شهيدي الوطن الشيخين فيليب وفريد . وقدر بعضهم عدد الذين قُتلوا في هذه المعارك بثمانية لاف مقاتل . وقد انتهت اخيرًا بفوز المصريين واللبنانيين . ثم استسلم شبلي العريان فامّنه ابراهيم باشا واعاد اليه سيفه ، فوعده هذا بتسكين الخواطر .

معركة تربل

مضت سنتان على هذه الثورات الداخلية انصرفت فيهما الحكومة المصرية الى تنظيم الادارة والعمل في تقديم البلاد . لكنها لم تخطُ خطوة في هذا السبيل حتى عادت الى اعداد الأهبات لكل الطوارئ ، لما علمت ان الدولة العلية التي لم تكن تطيق صبرًا على رؤية محمد علي ، تابعها في الامس ، مرهوب الجانب موفور الجاه ، اخذت ، باغراء بعض الدول الغربية ، تحشد جيوشها وتعدّ معدّاتها لاسترجاع اقسام المملكة التي اكتسحها جيش ابرهيم باشا .

وفي شهر حزيران من السنة ١٨٣٩ مشى الجيشان الى القتال ، وكان يقود العثمانيين الصدر الاعظم حافظ باشا وبعض قواد بروسيين احدهم الجنرال مولتك ، الذي اشتهر فيما بعد بقيادة الالمان في الحرب السبعينية ضد الفرنسويين . ويقود الجيش المصري ابرهيم باشا وسليمان باشا الفرنساوي . ودارت بين الفريقين رحى حرب طاحنة دامت يومين ، وانتهت بانتصار المصريين انتصارًا فاق انتصارهم الذي احرزوه في موقعة قونية . ولقد اعتقد الناس ان ابراهيم باشا ، الذي اسكرته خمرة الفوز ، يتابع الزحف على الاستانة فيفتحها ويستولي على تخت آل عثمان . ولكنه رجع عن ذلك ، وبدلًا من السير الى الامام ، تراجع الى الوراء . وكأنه شعر بخطورة موقفه ، لا تجاه تركية ، بل تجاه انكلترة وحلفائها . وبعد ستة ايام من معركة تربل ، توفي ، في الثلاثين من شهر

حزيران ، السلطان محمود بطة الصدر . وخلفه السلطان عبد المجيد ، ولم يكن تجاوز السابعة عشرة من عمره . وفي الثالث عشر من ايلول سنة ١٨٣٩ خان الاميرال احمد باشا ، قائد الاسطول العثماني ، دولته ؛ وجاء بالاسطول الى الاسكندرية فسلّمه في الرابع والعشرين منه الى محمد علي غنيمة باردة . فظنّ هذا ان الدهر سالمه . غير ان دول اوربة ، ما خلا فرنسة ، استقبحت عمل احمد باشا الخائن وقامت جميعها تطالب محمد علي برد الاسطول .

وقد قضى محمد علي شتاء سنة ١٨٤٠ ، يتأهب للقتال ويهيئ الاعدة الحربية التي يرافقها عادةً التضييق على الشعب بالضرائب والتكاليف والتسخير والتجنيد . واول عمل اتاه انه اخذ مال الفُردة مرتين في السنة ، وامر بتجنيد جميع الشبان المسلمين الغرباء الذين كانوا في بلاده من غير المصريين . وقبض ايضاً على التلامذة اللبنانيين النصارى الذين كان اخذهم من لبنان كلوت بك رئيس المدرسة الطبية لتلقي فن الطب فيها .

ولما بلغت هذه الاخبار نصارى لبنان اضطربوا وخافوا ان يكون ذلك مقدمة لتجنيدهم . والذي زاد في قلقهم ومخاوفهم هو ما علموه من ان مركباً مشحوناً ثياباً عسكرية رسا في مياه بيروت . فظنوا انها اعدت لهم فاخذوا يفاوضون الدروز في الثورة على الحكومة المصرية فبلغ ذلك ابراهيم باشا ، فكتب الى الامير بشير يستحثه على الاسراع في جمع سلاح النصارى .

ثورة اللبنانيين

ولما اتصلت اخبار جمع السلاح من النصارى باهالي دير القمر ، والديرون ، كما لا يخفى ، كانوا دوماً السابقين الى التحمس للدفاع عن المصلحة الوطنية ، عقدوا اجتماعاً في السابع من ايار سنة ١٨٤٠ وتداولوا في ما يحسن عمله . فقرّ رأيهم على مخابرة اهالي البلاد للمفاوضة معهم . وانتخبوا لجنة للتدبير قوامها من الموارنة : ابراهيم عيد البستاني ، وتادر ابي عكر نعمه ، ومنصور مرهج لطيف ، وفارس ثابت ، ويوسف ابو شمعون ، وغندور الكك ، وبشاره الجلخ ؛ ومن الكاثوليك : سلوم الخداد ، وحنا عيسى ، وداود الجاويش ،

وحبيب الصوصه ؛ ومن الدروز : خزوع خبيص ، وحمد الشعاري[1] . فكتبت هذه اللجنة الى اهالي البلاد تدعوهم للاجتماع في دير القمر للمداولة في الخطة التي يحسن السير عليها . فلبّى ابناء الوطن نداءهم وبعثوا اليهم بوفودهم وتحالفوا على ان يكون لهم رأي واحد وكلمة واحدة . ثم طفقوا يبثون الدعوة الى الثورة إلّم تعد الحكومة المصرية عن عزمها على جمع السلاح.

وبعد برهة ارسل الامير بشير عماله لجمع سلاح نصارى المناصف والشحّار. فهاج الدرزيون ، وجاؤوا حيث كان مأمورو جمع السلاح وطردوهم.

ثم بلغهم ان سليمان باشا خرج من صيدا قاصداً دير القمر لجمع السلاح ، فهبوا الى صيدا لمقاومة العساكر المصرية . وعقبهم في الهياج اهالي بعبدا فهاجموا شرذمة من العساكر المصرية كانت آتية من دمشق الى بيروت واغتصبوا اسلحتها . وكثر اللغط والهرج في البلاد ، وحامت الافكار في كل مكان حول الفتنة . ثم برز للميدان رجلٌ يعدّه التاريخ بطل الثورة الاكبر النافخ في بوقها ، الصائل في حومتها صولات الاسود الاشاوس.

كنت اودّ ان امرّ في الكلام دون ان اذكر اسم الثائر الجديد. ولكن خشيت ، ان فعلت ، ان اسيء الى الحقيقة التاريخية وانا في موقف المؤرخ. هذا الرجل هو والدي ابو سمرا غانم البكاسيني فانه ما عرف بثورة الدرزيين ، وهو صديقهم ، الا اخذ منه الحماس كلّ مأخذ مدفوعاً بعامل المروءة والنخوة ، وقد شقّ عليه ، وهو ربيب السلاح ، ان يجرد من سلاحه ويساق الى الحرب مكرهاً ليس للدفاع عن مبدأ وطني ، وانما لخدمة دولة استولى عليها حبّ الفتح والغزو مهما كلفها الامر من الاموال والرجال . فجاء الى سواحل بيروت في اوائل شهر حزيران من تلك السنة . وانضمّ اليه احمد داغر المتوالي من برج البراجنة ، وطفقا يُغريان الاهلين على العصيان . فتألبت حولهما جموع من برج البراجنة والشيّاح ومزرعة العرب وحارة حريك والتحويطة ، واخذوا ينهبون الطحين الوارد الى بيروت لحاجات العساكر المصرية فاصابوا توفيقاً . وفي احد

١) كان الدروز يُقيمون في دير القمر قبل سنة ١٨٦٠ المشؤومة . وكان المشايخ النكديون ذوي الاقطاع فيها . ولكنهم جلوا عنها بعد ذلك بامر الدول التي وضعت نظام لبنان .

الايام هجم على رأس رجاله على بيروت ، وفاجأ ما بين بوابة يعقوب وبوابة الدركي شرذمة من الجند ، واماها رأس غنم مذبوح. فبدد شملها وغنم منها خمسة واربعين بارودة والخروف . ثم اخذ عدد الثائرين يزيد حتى اصبح مركز الثورة الاساسي في ساحل بيروت. وقد انضم الى رجالها اهالي الشويفات وبعبدا والحدث ووادي شحرور وكفرشيما. فخرجت لقتالهم فرقة من الارناؤوط بقيادة الضابط مجهر آغا ، فلاقاها اللبنانيون الى محلة الاشرفية بقلوب جريئة تخفق فوق رؤوسهم راية مؤلفة من اللونين الاخضر والاحمر قطوها حربة في رأسها صليب ووقعت بين الفريقين معركة دامية اندحر فيها المصريون ، وقتل ابو سمرا قائدها بيده وغنم حصانه وخمسة آلاف غرش وزعها على الثائرين . ولما بلغ خبر هذا الانتصار اهالي سائر الانحاء اللبنانية ، هبطوا من اعالي الجبال وانضموا الى اخوانهم يتقدمهم امراء ومشايخ اذكر اوفرهم شهرة وهم : الامراء فارس حسن ، ويوسف سلمان ، ومحمود سلمان الشهابيين ؛ وعلي منصور قايدبيه ، وعبدالله شديد مراد ، وعلي فارس ، وبشير احمد ، واسماعيل حسن قايدبيه اللمعيين ؛ والمشايخ فرنسيس حنا هيكل المكنى بفرنسيس ابي نادر والملقب بردار عسكر النصارى ، وعفيف صالح ، ونقولا خازن ، وشمعين صفا ، وصالح هيكل ، وبشاره فرنسيس الخازنيين ؛ والشيخ عيسى الخوري ، والمشايخ يوسف حمزه ، وبطرس وحنا ابني واكد الحبيشيين ؛ وزعيتر راشد ، وخطار حنا من الدحادحة ؛ والامير خنجر الحرفوش واخوه سليمان من امراء متاولة بعلبك . وبرز من بكفيا الفارس المغوار يوسف الشنتيري المشهور.

وفي السابع من شهر حزيران اجتمع بعض اهالي كسروان والمتن وغير جهات في انطلياس ، واتفقوا على توحيد الكلمة والرأي في العمل ودخلوا الكنيسة ، ووقعوا عهداً يلعنون فيه من يخون المحالفة.

وقد نشر تاريخ ابو سمرا غانم نص هذا العقد وهو بحرفه :

الداعي لتحريره

انه يوم تاريخه قد حضرنا الى ماري الياس انطلياس نحن المذكورة اسامينا به بوجه العموم من دروز ونصارة ومتاولة واسلام المعروفين بجبل لبنان من كافة القرى وقسمنا يمين على مذبح القديس المرقوم باننا لا نخون ولا نطابق بضرر احد منا ابداً بل يكون القول

واحد والزاي واحد ونحن جمهور الدروز اذا حدس منا وبان ادنا خلل نكون باريين من ديانتنا ومقطوعين من شركة الدروز والمطوط الخمسة وتكون ناوتا طالقة من السبعة مذاهب ومحرمة علينا من كافة الوجوه وايضاً يشهد علينا القديس مار الياس ويكون خصمنا وقد قمنا علينا شيخاً جناب الشيخ فرنسيس ابن جناب الشيخ حنا هيكل الخازن من غوسطا ونحن جمهور النصارة الذين يخون منا يكون مار الياس خصمه ولا يكون له موتة على دين المسيح . حرر في ٨ ربيع آخر سنة ١٢٥٦ الف ومائتين وستة وخمسين صح صح صح

ونصاره ومتاوله واسلام — المقر بما فيه

بوجه العموم — جمهور الدروز في جبل لبنان

صح انه حضرت المدونة اسماؤهم اعلاه قسموا يميناً على مذابح مار الياس بحسبما هو محرر اعلاه والميان حررنا بيدهم هذه الشهادة تحريراً في ٧ حزيران سنة ١٨٤٠ مسيحية

صح كاتبه القس سيريدون عرامون

خادم مار الياس انطلياس انطونياني

وهجم ابو سمرا برجاله وبمعيته يوسف الشتيري ، على العسكر المصري المرابط عند الكورنتينا ، وهم يهزجون باغاني الحرب ، فالقوا الرعب في قلوب المصريين ، فهربوا من امامهم مدحورين بعد ان قُتل منهم عدد وافر . ومنذ ذاك الحين اخذ اللبنانيون يهزجون باسم ابي سمرا والشتيري فقالوا :

في سجين في الديري بو سمرا والشتيري

ما التفوش عند السلطان الخ . . .

كل هذه الحوادث جعلت المصريين يقومون ويقعدون . فامر ابراهيم باشا الامير بشيراً ان يستعمل نفوذه في تسكين الخواطر . فاهتم الامير بالامر جدّ الاهتمام ، وارسل من قبله الامير بشير قاسم ملحم يترضى الثائرين فابوا الاذعان ، فاوفد اليهم ثانية الامير ملحم بعبدا ، فلم يفلح في اقناعهم . فارسل ثالثاً ولده الامير امين وطفق يغريهم على الطاعة ويحذرهم من شر العواقب . فاجابوا انهم لا يسلمون الا اذا استجيبت مطاليبهم ، وقد وقعوا اليه كتاباً مؤرخاً في الحادي عشر من حزيران نشره المؤرخ بوجولا الفرنساوي في كتابه المدون «*Voyage dans l'Asie Mineure*» رأيت من المفيد ترجمته الى العربية وهو :

« انكم لا تجهلون مع الامير بشير المظالم التي يتحملها اهالي لبنان وصنوف الارهاق والضرائب التي يئنون تحت اثقالها . لما تبسطت سيطرة حكومة محمد علي على بلادنا كان اللبنانيون في مقدمة الذين ادّوا فروض الطاعة وقد رافقوا الجيوش المصرية الى محاربة دمشق وساروا الى ملاقاتها في حماه وطرابلس . ولما ثار اهالي صيدا ونابلوس والمتاولة ذهب اللبنانيون

بعية الامير بشير وحاربوهم واجبروهم على طاعة الدولة المصرية. وقد اماوا لقاء هذه الخدمات التخلص من الجور والعسف . ولكنهم ساؤوا فالًا وخابوا رجاء وكوفئوا بان جُردوا من سلاحهم واجبروا بعد ذلك على التجند فكان هذا اشد المصائب التي نزلت بهم. واضم اغتصبوا نساءهم وانزلوا بهنّ جميع انواع النكال وربطوهنّ الى الاشجار . وقد اوجب عليهم الامير بشير دفع مال الفُرده الذي تقاضاه ايضًا عن الذين ماتوا او هلكوا في الحروب في سبيل المصريين ولما اكتشفوا منجم الفحم الحجري في الجبل ارغموا اللبنانيين بتمدينه واكرهوهم على تقديم ادوات العمل بدون ان يدفعوا لهم اجرهم وارسلوا مراقبين يناظرون الاعمال وكانوا يدفعون للعمّلة وللمكارين لنقل الفحم الى بيروت اجورًا زهيدة واكرهونا على دفع باقي المرتبات من جيوبنا وعلى تقديم الاخشاب والاكياس ولم يدفعوا لنا سوى ربع قيمتها وسخرونا بنقلها من قرانا الى المنجم مجانًا . ولو شئنا تعداد جميع هذه المظالم لطال بنا المجال ولوجب علينا ان نعدّ ضربات العصي والاهانات التي انزلوها بنا كما فعلوا بفلاحي مصر . ولا نذكر الاموال التي تقدّمنا لامرائنا وللبوكباشية . ومنذ وضعوا المحجر الصحي الى الان قد اوجبوا على ابناء الجبل ان يقدموا الكلس بثمن بخس وان ينقلوه بدون اجر على دوابهم . وفرضوا ضرائب جديدة على المطاحن وساقوا البنّائين قسرًا الى عكا والى المحجر الصحي والى غير انحاء بعيدة بربع الاجر المعتاد واكرهوا الناس على العمل في الاشغال العمومية في المدن والقرى وفي كل مكان حتى اصبحت العيال اللبنانية في اشد حالات الفاقة والاملاق . وشمل الخراب كافة البلاد لنفاد المال والرجال والماشية منا . وعطلت الارض ونضب مورد الرزق . وكثيرون من المكارين اهلكوا بغالهم او جمالهم او باعوها بابخس الاثمان تخلصًا من السخرة . وقد استاقوا السواد الاعظم منا الى العمل في منجم الفحم او في خدمة الجيش . ولما أُتركت باخواننا ومواطنينا اهالي حوران تقم الحرب وسيموا خسفًا وهوانًا سلّمتنا الحكومة اسلحة وارسلتنا الى قتالهم ففعلنا بهذا العمل مدة سنتين وقد لقي الكثيرون منا حتفهم إما من مشقات السفر او في ساحات القتال وقد تكلفنا فوق هذه الخسائر البليغة نحو الفي كيس . ولما رأينا اخيرًا اننا اضعنا اموالنا وفقدنا اولادنا وخسرنا حريتنا وانه لم يبقَ لنا سوى الهلاك واليأس ثار ثائرنا لنتخلص من الجور وننتم شيئًا من الراحة والحرية فاذا كانت الحكومة تراعي العدالة وترفع عنا نير الظلم ، فاننا مستعدون للتسليم والانصياع الى اوامرها . لاننا لا نطمع من ثورتنا بانشاء دولة وانما جلُّ مرادنا هو ان ننجو من هذا الجور الذي لا يطاق لاننا لا نستطيع ان ندفع سوى مال اميري واحد على املاكنا والجالية . فان قبل التماسنا وارتفع الظلم عن عواتقنا كان لنا مطاليب نرجو تحقيقها وهي : ان يؤخذ منا مال اميري واحد ومال عنق واحد (جالية) وان يجمع المال تحت إشراف عمال انكليز وفرنسا وبواسطة قناصلهم في هذه البلاد حتى اذا كانت الحكومة لا تقوم بهذه التعهدات بكل دقة يبقى لنا الحق ان نطلب من هاتين الدولتين تنفيذها . واننا سنبقى مرابطين في اماكننا الحالية منتظرين الجواب فان كان بالايجاب افترقنا كلٌّ الى بيته وان كان بالرفض فنحن موثرون الموت على الحالة الحاضرة . فلتتدبر السلطة الامر .

(للبحث صلة) عموم اهالي جبل لبنان